ظهور الإسلام

إن الدّين الإسلامى الذى دَعَا إلى عبادة اللّه سبحانه وتعالى " لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللَّطيف الخبير " أساسه : شهادة ألا إله إلا اللّه وأن محمد رسول اللّه وجعل الجهاد من أجْله فَرْضا ، وأذنهم أنه لا يغفلا أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء وبذلك وحّد بينهم فى العقيدة ، وجمعهم فى صعيد واحد للعبادة وكان هذا الاتحاد القلْبىّ هو النعمة الجُلى التى امتن اللّه بها عليهم حيث يقول لهم سبحانه :

﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾

[آل عمران:١٠٣]

الناحية الأدبية

لقد كان للحياة الأدبية مظاهر يجدر بمؤرخ الأدب أن يقف عندها قليلاً كى يستشعر القارىء ما كان لظهور الإسلام من مَدَدٍ فياض أكسبها رُقياً ، وإصلاح عظيم أفاض عليها نهوضاً وهى تنحصر فى الخطب القليلة المأثورة عنهم فى أقوال كُهْانهم وَكَوَاهِنهم ، وفى تلك الأمثال والحكم المشهورة والشعر.

أما الخطابة عندهم فكانت قريبةً من الشعر فى التأثير والقوة وإن كانت مقامات الخطباء لم يعرف عنها إلا القدر اليسير ولا شك أنه كانت لهم مواقف متعددة يستعينون فيها بخلابة ألسنتهم وهيبتهم وقوة تأثيرهم عند التأهب للقتال وفى شهود المواسم ، وعند التنافر إلى الحكام ، والمفاخرة بالأحساب والأنساب والوفادات إلى الملوك ، والسفارات بين القبائل لعقد الصلح وتأمين التجارات

واحتمال دِيَّات القتلى فى الحروب ، ومع ذلك لا يزيد جميع المأثور عنهم فى ذلك عما عرف لكاتب واحد من أدباء العصور المتأخرة .

وقد قيل إن " قيس بن خارجة " الذى اشتهر بالخطابة فى حروب داحس والغبراء سُئِل عما عنده فى حَمَلات " داحس " **فقال** :

" عندى قِرَى كل نازل وأمان كل خائف ، وخطبة من لدن تطلع الشمس إلى أن تغرب آمر فيها بالتواصل، وأنهى عن التقاطع . وإن خطيباً يستطيع ان يقف من طلوع الشمس إلى غروبها موقفاً واحداً يحبب الناس فيه إلى الوئام والتواصل وينفرهم من الانقسام والفرقة ثم يعاصر حرباً كما يقول المؤرخون أنها دامت أربعين سنة لم يكن جديراً بأن يغفله التاريخ ولا يعرف من آثاره إلا هذه الكلمات القليلة . وذلك بالضرورة دليل قاطع على أن النثر العربى فى هذا العصر قد تبدد وأفلت معظمه من التقييد والحفظ، وليس معنى ذلك أننا لا نؤمن بأن العرب فى هذه الفترة من جاهليتهم لم يكثروا من الخطب فى تلك المواقف المتعددة التى أشرنا إليها فيما سبق .

وقد تظاهرت الروايات على بعض آثار قليلة من الخطب كان لمعظمها علاقةً شديدةً بالتطور المنتظر للجزيرة العربية وتشمل نصوصها على كثير من المعانى الدينية كخطبة " قُس بن ساعدة " المشهور وهو خطيب العرب فى " عكاظ " وأسقف " نجران " المشهور وشبيه بما فى غرضها ومعناها وقد رواها " أبو على القالى " فى أماليه ، ويتصل بذلك شىء مما أثر عن " أكثم بن صيفى " وبالنظر لشهرته بين العرب بالرأى والحكمة اشتد الحرص على حفظ ما ينسب إليه ، من ذلك موقفه فى قومه من بنى تميم فى بدء ظهور الإسلام وإهابته بقومه أن يتبعوا

هذا الدين الجديد ويكونوا أول المساعدين على بث دعواه ونشر تعاليمه ، فى العرب وما ذكرناه عن الخطابة والخطب يتناول الكهانة والكهان .

ومواقف العرب فى المنافرات التى أشهرها ما وقع بين " عامر بن الطفيل" وعلقمة بن علاثة العامريين " فقد قيل إنهما تلاقيا وتنازعا الشرف فى حييهما وقومهما ، ثم اقبلا يتحاكمان إلى أشراف العرب حتى دفعا إلى " هرم بن قطبة الفزارى " ففصل بينهما بكلمته المشهورة وهى قوله لهما " أنتما كركبتى البعير الأدرم تقعان إلى الأرض معا وتقومان معا"ولولا أنه قبل هذا الحكم قد خوف كل واحد منهما من صاحبه بما كان يظهره عند الخلوة بأحدهما من التضعيف له والتهوين من شأنه والإشادة بفضل صاحبه عليه وبعد المدى بينهما فى الفخار والشرف والمجد لصح أن ينقضا عليه حكمه بقول أحدهما فأيهما اليمنين؟ ولكنهما كانا يشفقان من هذه الحكومة ويخشى كل واحد منهما أن يقضى عليه .

وقد أثر كذلك من أقوال الكهان وأسجاعهم التى كانوا يعبرون بها الرؤيا ويفصلون بها فى الخصومة ما لا يصح أن يعتد به أو يتخذ دليلاً ، على قيمته ما كان لهم من الأدب المنثور لقلته ، وعدم غنائه فى هذا السبيل كالذى حفظ عن "شق وسطيح " الكاهنين واتفاقهما على تفسير رؤيا " ربيعة بن نصر الخمى " وما لاقاه فى ذلك من الإجبار بغزو الأحباش لبلاد اليمن .

أما موقف المؤرخ مما أثر عن العرب من الأمثال والحكم فقد يكون أحسن حالاً مما سبق لكثرة ذيوع هذه الأمثال والحِكَمْ ولقربها من الشعر فى سهولة التقيد والحفظ لاشتمالها على جمال التشبيه، وقصر العبارة، ولقيامها لهم بإفحام الخصم وإصابة الصواب ، وفصل الحجة عند اشتداد الجدل بين الخصوم وظهور الرغبة من

المتخاصمين فى الغلبة بالحجة والغلبة للمنازع ولذلك كانت حاجتهم ماسة إلى حفظ هذه الأمثال والحِكَمْ فبقى منها قدر صالح ، ولا يفوتنا هنا أن ننتبه على مقدار ما تدل عليه هذه الكثرة من الأمثال والحكم من جهة سهولة فتدعها عليهم وتقييدها لكثير من المشاهدات والوقائع عندهم ، فهى أقوى الأدلة على ما تأصل عند العرب من ملكة البيان وشدة مطاوعة اللِّسان ، وتشير أيضاً إلى ثقوب ذهن ويقظة فطنة لكل ما وقع تحت الحس من المشاهدات والأحوال وهى فضلاً عن ذلك كله مشتقة من البيئة البدوية وممثلة لحالة الاجتماع العربى وأكثر ألفاظها مأخوذ مما كان يستخدمه العربى فى حياته العامة من سلاح ولباس وماعون ونحو ذلك مما يجرى مجرى الحكمة القائمة لهم فى كفهم عن الغرابة وهديهم إلى الرشد وتمام الحكام المسلطين والقوانين الرادعة كقولهم : قبل الرماء تُملأ الكنائن " " إن العوان لا تُعلّم الخِمْرة " " تجوع الحُرْة ولا تأكل بثدييها " " إن البلاء موكل بالمنطق " إلى غير ذلك كثير مما دون فى كتاب " أمثال الميدانى ، وجمهرة الأمثال " " لأبى هلال العسكرى " وأمثال " المفضل الضبى "

وأما الشعر فلم يكن للعرب فى حياتهم الأدبية أكرم مظهراً منه ، جعلوه ديوانهم ومستودع فخارهم وأيامهم ومآثرهم وأخلاقهم وعاداتهم ، ودياناتهم وعقليتهم ، وإن شئت فقل إنهم سجلوا فيه أنفسهم وقديماً انتفع الأدباء بشعر العرب فى الجاهلية فاستنتجوا منه بعض أيامهم وحروبهم وعرفوا منه أخلاقهم التى يمدحونها والتى يهجونها واستدلوا به على جزيرة العرب ، وما فيها من بلاد وجبال ، وسهول ووديان ونبات وحيوان ، وما كانوا يعتقدون فى الجن والأصنام والخرافات ، وألفوا فى ذلك جميعه الكتب المختلفة .

ولا يعنينا أن نبحث عن أوليته ولا عن روايته ، ولا عما يشغل بعض المجددين من البحث فى سبقه على النثر ، أو تقسيمه إلى قصصى وغنائى وتمثيلى واتخاذ بعضهم من هذا التقسيم معنى للحط من مقام الشعر العربى معتمداً فى ذلك على اتخاذ الأدب اليونانى مقياساً له فى الاستحسان والاستقباح لما يعالجه من البحث فى تاريخ الأدب العربى والشعر ، بدعوى أنه لم يوجد فيها قصص ولا تمثيل بهذا المعنى ، فذلك بالضرورة بعيد عن دائرة بحثنا الذى نستخدمه كمقدمة تمهيدية لتطور الأدب والموازنة بين الأدب الجاهلى والأدب الإسلامى الأموى .

وفى هذه الفترة نهض الشعر نهضته المشهورة ، وتظاهر شعراء القبائل المختلفة فى أنحاء الجزيرة على الاشتراك فى الإصلاح العام ، واقترن بذلك صيرورة اللغة العربية إلى وحدة لغوية جامعة متمثلة فى لغة قريش التى تغنى بأسلوبها الشعراء من الأشراف والصعاليك فى السهول والجبال ، وتسايرت بها مواكب القَرِيض فى المواسم والأسواق ، وعند الملوك والسوقة وفى الحروب والمفاخرات حتى لم تَخْلُ بادية من البوادى ولا مصر من الأمصار العربية من الشعراء والرواة الذين كانوا يحفظون الأشعار ويذيعونها فى الآفاق ويتناشدونها فى الأسمار والأسفار ، وكانت هذه الوحدة اللغوية مهيئة لبلوغ العرب إلى وحدة اجتماعية وانتشار الشعور بالحاجة الشديدة إلى ترك التنابذ والفرقة وتوجيه الفكر إلى الوئام والاتحاد ، توطئةً لاستقبال عصر جديد وعهد مقبل من الإصلاح أصاب العالم برجة عنيفة لم يقتصر أثرها على الجزيرة العربية ، بل تعداها إلى غيرها من الأصقاع العامرة يومئذٍ ، وهو ظهور الإسلام .